المجلة الدولية للدراسات اللغوية والأدبية العربية

المجلد الخامس، العدد الثالث، 131:124
أيلول (2023)

بحث رقم 4

الذات المنتجة للخطاب ومسائل الخلاف بين الشعر والترسل
رسالة أبي إسحاق الصابي أنموذجًا (ت 384 هـ)

The Producing Discourse Self and the Issues of Disagreement between Poetry and Prose- The Letter of Abu Ishaq al-Sabi as a Model (D. 384 AH)

أحمد طايعي

Ahmed Tayi

أستاذ الشعر العربي والمناهج النقدية المعاصرة- جامعة مولاي إسماعيل- الكلية متعددة التخصصات بالرشيدية- المغرب

Professor of Arabic Poetry and Contemporary Critical Methods, Moulay Ismail University, Interdisciplinary College of Rachidia, Morocco

Tayi_ahmed@yahoo.fr

Accepted قبول البحث	Revised مراجعة البحث	Received استلام البحث
2023/11/20	2023/10/26	2023/9/24

DOI: https://doi.org/10.31559/JALLS2023.5.3.4

This file is licensed under a *Creative Commons Attribution 4.0 International*

International Journal for Arabic Linguistics and Literature Studies (JALLS)

المجلة الدولية للدراسات اللغوية والأدبية العربية

Journal Homepage: https://www.refaad.com/Journal/Index/6

E-ISSN 2663-5860 | P-ISSN 2663-5852

www.refaad.com

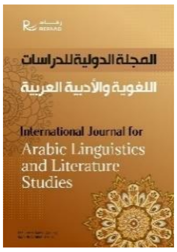

الذات المنتجة للخطاب ومسائل الخلاف بين الشعر والترسل

رسالة أبي إسحاق الصابي أنموذجًا (ت 384 ه)

The Producing Discourse Self and the Issues of Disagreement between Poetry and Prose- The Letter of Abu Ishaq al-Sabi as a Model (D. 384 AH)

الملخص:

الأهداف: تهدف الدراسة إلى تحصيل المعرفة بأوجه الخلاف، بين صناعة الشعر وصناعة الترسل؛ وذلك عبر تحقق شرط المعرفة بنص القراءة النقدية لدى ذاتين منتجتين. الأولى ترتبط بالذات الشاعرة أو الذات المترسلة؛ من خلال ما كتبه أبو إسحاق الصابي" إلى بعض إخوانه، وقد سأله عن الفرق بين المترسل والشاعر". وتختص الثانية بالذات المتلقية، ومدى استجابتها لهذا التنظير النقدي.

المنهجية: تم الاعتماد أولًا، إلى استثمار مفاهيم من الدرس النقدي الأدبي المعاصر؛ ممثلة في الجهاز المفهومي لمدرسة كونسطانس الألمانية. وثانيًا اعتمدنا جملة مفاهيم، استقيناها من المنجز النقدي للشعرية العربية القديمة.

خلاصة الدرسة: خلصت الدراسة إلى أن النظر في مسائل "اختلاف " طبيعة العملية الإبداعية في الشعر عنها في الترسل، متحقق، من جهة مستويات الخلفية النظرية- النقدية المؤطرة لتصور الصابي لهذين المكونين الأدبيين في الشعرية العربية القديمة. وثانيًا، من جهة السمات التي يمتاز بها كل جنس عن الآخر،كالوضوح والغموض والطبع والبنية الإيقاعية. وهو ما ذهبنا إلى بيانه وتفسيح النظر النقدي فيه.

الكلمات المفتاحية: *الخلاف؛ الشعر؛ النثر؛ المبدع؛ المتلقي؛ أبو إسحاق الصابي.*

Abstract:

Objectives: This study aims to understand the issues of disagreement between the poetry industry and the prose industry by means of fulfilling the condition of knowledge of the critical reading text by two productive selves. The first is related to the poetic self or the prose self-based on what Abu Ishaq Ibrahim bin Zahroun al-Sabi wrote to one of his brothers. He asked him about the difference between the prose writer and the poet. The second concerns the recipient self and the extent to which it can respond to this critical theorizing.

Methods: Concerning the efficiency of the methodological vision, we first exploited concepts from the contemporary literary criticism related to the conceptual system of the German School of Constance. Second, webasedour study on some concepts derived from the ancient Arabic poetic criticical product.

Conclusions: The study concluded that examining the issues of the “difference” in the nature of the creative process in poetry from that in prose is valid, in terms of the theoretical-critical background governing Al-Sabi’s perception of these two literary components in ancient Arabic poetry. Secondly, in terms of the characteristics that distinguish each type from the other, such as clarity, ambiguity, gift, and rhythmic structure. This is what we tried to explain and expand our critical consideration of it.

Keywords: *Disagreement; poetry; prose; recipient; Abu Ishaq Al-Sabi.*

المقدمة:

إذا كنا نتفق على حقيقة مفادها أن التراث النقدي العربي عالج، خلال مسيرته الطويلة، كثيرًا من القضايا المرتبط بإشكالية اللفظ والمعنى، والطبع والصنعة، والخصومة بين القدماء والمحدثين، والسرقات الشعرية، والصدق والكذب،..فإن معالجته لقضية الزوج (شعر- نثر)، تبدو، في تقديرنا، أكثر أهمية بالنظر إلى ما صاغته من إشكال تأسيسي تعلق بمسألة التجنيس الأدبي؛ الذي لم تأت فيه أقوال النقاد العرب على كلمة سواء. من أجل ذلك يبدو الحديث عن شرط التناظر بين الشعر والنثر، في أصل معناه،" ضرورة منهجية" لا غنى عنها، لمن رام بيان "اختلاف " طبيعة العملية الإبداعية في الشعر عنها في النثر، وكذا ضرورة الالتزام بتبيان خصائص الصياغة، شكلًا وموضوعًا، في كل منهما (صمود، 1990، ص 611) .

الدراسات السابقة:

ولا شك أن اختيارنا، في هذه الدراسة، إعادة قراءة رسالة الصابي؛ التي كتبها " إلى بعض إخوانه، وقد سأله عن الفرق بين المترسل والشاعر" (الصابي، 2017، ص.81) لن تكن بدعًا من الأمر، بل قد سبقتنا دراسات أخرى، ساهمت إلى حد كبير في فهم وإفهام المنجز النقدي في رسالته؛ نذكر منها على سبيل التدليل النقدي لا غير:

- الدراسة التوثيقية النقدية، لمحقق رسالة أبي إسحاق الصابي" في الفرق بين المترسل والشاعر"، الباحث، زياد الزعبي (2017). فقد نشرت ضمن (رسالتان من التراث النقدي عند العرب) بالأردن. تتكون الدراسة من قسمين وملحق. ركز القسم الأول منها على حياة الناقد الصابي، وبيان مرجعيته الثقافية؛ كما خصص الحديث عن رسالة الصابي موضوع التحقيق. بينما ركز القسم الثاني على " تحليل ونقد لمادة الرسالة، وبيان لامتداداتها وتأثيراتها في النقاد الذين جاءوا بعد الصابي". (الزعبي، ص 89)
- أما الأخرى، فهي للباحث، محقق رسالة أبي إسحاق الصابي" في الفرق بين المترسل والشاعر"، محمد بن عبد الرحمن الهدلق. (1990). وهي دراسة توثيقية تجميعية، صدر بها الرسالة. وقد نشرت ضمن مؤلف جماعي: قراءة جديدة لتراثنا النقدي، منشورات النادي الثقافي بجدة. تحدث فيها- بعد أن ذكر بوصف النسخ المخطوطة التي اعتمد عليها في التحقيق- عن حياة المؤلف وأشهر مؤلفاته. ثم عرج الباحث على رسالة الصابي، مذكرًا القارئ بأهم القضايا التي تعالجها الرسالة في مسألة التفاضل بين الشعر والترسل، لافتًا الانتباه إلى الاستحسان والاعتراض الذي لاقته الرسالة من طرف كثير من النقاد؛ من أمثال: ابن سنان الخفاجي(ت 466)، وضياء الدين بن الأثير(ت 637)، وابن أبي الحديد(ت 656) . (الهدلق، 1990، (2)، ص. 587)

ضمن هذا المعطى من التوثيق والتحليل والنقد لهؤلاء الباحثين، تبدو العودة مرة أخرى إلى رسالة أبي إسحاق إبراهيم بن هلال بن زهرون الصابي(ت 384 هـ)، بوصفها نصًا نقديًا تراثيًا، يمثل حجر الزاوية؛ وذلك لتقديم قراءة تتصف- في الذي نعتقد به- بالجدة في التناول والمقاربة؛ وذلك من خلال الوقوف، أولًا، على أوجه المفاضلة، بين الفن القولي المنظوم والفن القولي المنثور، كما تم تصوره في المنجز النقدي للشعرية العربية القديمة. وثانيًا، على ما نتصور أننا أقدر، في أمر قراءة العدة المفهومية، التي بنت مستويات الخلفية النظرية المؤطرة لسمات الخلاف، بين ذينك المكونين الأدبيين، على رصد نسقها المنهجي الذي تتحرك فيه، ومحاولة قراءتها في ضوء منظومة مصطلحية قائمة في بعض الاجتهادات النقدية الغربية المعاصرة.

منهجية الدراسة:

وتبعًا لهذا، فإننا لم نعدم، من حيث نجاعة الرؤية المنهجية، أفضل من الاعتماد على الجهاز المفهومي؛ الذي أسسته مدرسة كونسطانس الألمانية، بزعامة هانس روبيرت ياوس، وزميله وولف غانج إيزر. على أن الاستناد إلى إسهامات هذين المنظرين، لم يمنعنا من استثمار جملة مفاهيم، وكذا أدوات منهجية استقيناها من أصول النقد العربي القديم.

خطة الدراسة:

اقتضت الدراسة ترتيبها وفق النقط والمباحث الآتية:

- الملخص.
- المقدمة.
- الدراسات السابقة.
- المبحث الأول: المجال التصوري للذات المنتجة لخطاب الترسل وسمة الوضوح.
- المبحث الثاني: المجال التصوري للذات المنتجة للنص الشعري وسمة الغموض.
- المبحث الثالث: موافقة الطبع سمة للخلاف بين المترسل والشاعر.
- الخاتمة والخلاصات.

- المصادر والمراجع.

المبحث الأول: المجال التصوري للذات المنتجة لخطاب الترسل وسمة " الوضوح"

أشرنا في كتاب لنا سابق، (طايعي، 2022، ص119) إلى أن الذات المنتجة للخطاب، تحتوي على غيريتها إلى درجة كبيرة جدًا؛ حتى أنه لا يعود من الممكن التفكير في الواحدة دون الأخرى؛ إذ اشتقاق أو تجريد الأنا من الآخر لا يتم إلا من الأنا، وحيث الآخر مضمن مسبقًا، صرنا هنا إلى النظر في الذات المنتجة للخطاب، من زاويتين:

- زاوية الذات الشاعرة، وليس من زاوية ذات الشاعر.
- زاوية الذات المترسلة، وليس من زاوية ذات المترسل.

هذا، ولما كان تفسيح النظر في هذا التصور الذي يؤمن- إلى جانب مفاهيم صديقة Concept- Ami- بأنه لا وجود لحقيقة تأويلية خارج ما تقرره الذات، من حيث تصوراتها وانطباعاتها الخاصة، (طايعي، 2022، ص120) ذهبنا إلى بيان أن الذات المنتجة للترسل، من منظور الصابي- ذات تنقسم أولًا، إلى الذات المترسلة الباثة لدلالات تمثيلية تصديقية. وثانيًا، إلى الذات التي تتلقى النص وتعيش تحت سلطة مقصدية لغته المنتقاة. وهو ما يترتب عنه القول، بأن استحضار الذات المتلقية لنص الترسل من قبل الباحث، يفترض تحقق مقاصد واعية، لعل أبرزها:

1. "**وضوح**" المعنى، سواء أكانت المعاني حقيقية أم معاني مجازية مصاحبة. فالذوات المتلقية لنص الترسل تتفاضل استعداداتهم النفسية، كما تتباين قدراتهم وكفاءتهم في ترتيب أجزائه، وتتبع دلالئه القريبة والبعيدة المأخذ، على حد سواء. إنه- أي النص الترسلي- " يمر على أسماع شتى الأحوال من خاصة ورعية، وذوي أفهام ذكية وغبية" (الصابي، 2017، ص 112).

وإذا تقرر هذا، فالمتبادر إلى الفهم أن مبنى الترسل، بوصفه مبنى إبداعيًا، يقتضي أولًا، لغة توجب الاستحسان، (الصابي، 2017، ص112) عبر وحدات تركيبية جملية، هي ذاتها تتمثل من قبل أفق توقع المترسل، على أساس أنها وحدات ناقلة ومستقصية لكل ما تمت صياغته في الواقع. وثانيًا، أن مبنى الترسل يقتضي التجربة المسبقة التي يتوفر عليها المتلقي في مجال الكتابة الترسلية؛ (Jauss, 1978, p 49-52) نقصد قارئا يكون على معرفة مسبقة بالمعايير الجمالية المتعلقة بهاتيك الكتابة. إنها الكفاءة الأدبية التي تمكنه من الإلمام الواسع بسعة اللغة التي يبنى بها النص النثري.

إن الخلاف والمخالفة والاختلاف، كما يورد الراغب الأصفهاني، هو" أن يأخذ كل واحد طريقًا غير طريق الآخر، في حاله أو قوله. والخلاف أعم من الضد، لأن كل الضدين مختلفان، وليس كل المختلفين ضدين. ولما كان الاختلاف بين الناس في القول، قد يقتضي التنازع، استعير ذلك للمنازعة والمجادلة". (الأصفهاني، 2009، ص294). وعند ابن منظور في معجمه:" تخالف الأمران واختلفا: لم يتفقا. وكل ما لم يتساو فقد تخالف واختلف" (ابن مظور، 1988).

وهو ما نقف من خلاله- في إطار الارتداد إلى الحقل التداولي الذي أخذ منه الخلاف- على أن أبا إسحاق الصابي يقِيم مرتكزه التنظيري، على خاصية تمَنّع الجمع بين غيرين يمتنع اتحادهما أو مداخلتهما. (التهناوي، 1998، (4)، ص 145، وعبد الرحمن، طه، 2000، ص 119) إنه نظر نقدي يتقصى طبيعة الخلاف القائم، بين:

- لغة ترسلية تختزن قيم" الوضوح" و" التصديق"، وتحتكم إلى نظام الاستدلال بالملفوظ على المقصود؛ (طايعي، 2022، ص 134) . حيث تقتضي أن يكون النص في أساليب صياغته، وطرق إيراد معانيه على هيئة يسهل معها فهمه وإدراك مضمون خطابه. يقول أبو حيان التوحيد:" ألا ترى أن الانسان لا ينطق في أول حاله من لدن طوليته إلى زمان مديد، إلا بالمنثور المتبدد، والميسور المتردد؟ وليس كذلك المنظوم لأنه صناعي". (صمود، 1990، ص 616) إنه لا يمكن تأويل مقصدية البنى اللغوية والتركيبية والدلالية لخطاب الترسل إلا عندما تنقاس ردًا على تفاعلاتها الاجتماعية والثقافية. فلا مسوغ، ههنا، للفصل أو التمييز، بين لغة الترسل، القائمة على" فخامة الألفاظ اللائقة". (الصابي، 2017، ص 114) ولغة الإبلاغ في حال استعمال؛ وهو ما يستلزم معه شرط استحضار الوعي الذي يتلقاها. (طايعي، 2007، ص 162) أي إنه على الذات المنتجة" لمنثور الكلام" (الصابي، 2017، ص 112) مراعاة هذا اللا تجانس، من حيث الطاقات الإدراكية للمتلقين، وطبائع أذواقهم وتشكلات معارفهم، بالإضافة إلى المرجعية. اللامتشابهة. فهناك القارئ البسيط الذي ينتمي إلى العامة ذات القدرات العقلية البسيطة والإمكانات المعرفية المحدودة. لذا، فإن القارئ حين يتواصل مع" منثور الكلام"، فإنه يجنح نحو تفسيره والوقوف عند معانيه الظاهرة التي لا تخرج عما اتفق عليه وجرت به العادة والعرف. في حين يتميز القارئ "العارف" بطاقات عقلية وإمكانات معرفية متنوعة تسعفه في بيان المتستر خلف بنيته.

- ولغة ذات وظيفة شعرية تخييلية، تختزن قيم " الغموض" و" التأويل المتعدد" (Jauss, 1978, p.49). إن طريق الإحسان في منثور الكلام، يقول الصابي، يخالف طريق الإحسان في منظومه، لأن أفخر الترسل هو ما وضح معناه، وأعطاك غرضه في أول وهلة سماعه (الصابي، 2017، ص 112).

2. إنه لا يمكن أن تتحقق سمة" الوضوح" في القول المترسل، وأن تنكشف معانيه في سياق القراءة المتصلة والممتدة، سواء أتعلق ذلك بالمتلقين العاديين أم العارفين، إلا عبر تحقق شروط الوحدة الموضوعية والعضوية. أي من خلال التماسك والتلاحم بين أجزاء الكلام الترسلي الواحد. إن الترسل صناعة نثرية متينة السبك، أحكمت علاقات أجزائها، فاستوفت حظها من شمولية الوحدة المعنوية لدى باثها الأصلي أولًا، ولدى المتلقي لها، المتفاعل مع تراكيبها اللغوية، ثانيًا. (حسان، 1990، 2، ص789). يقول الصابي:" إذ الكلام واحدا لا يتجزأ ولا يتفصل إلا فصولًا طوالًا، وهو موضوع وضع ما يهذّ هذا ويقرأ متصلًا.. فإذا كان متسهلًا متسلسلًا، ساغ فيه وقرب أذنه في أفهامها، وتساوقت الألسن في تلاوته، والألباب في درايته.. ألا ترى أن أحسنها ما كان متعلقًا بعضه ببعض، ومقتضيا تعطفا من الهوادي على التوالي، وردًا من الأواخر على المبادئ". (2017، 112-113)

ومعنى هذا، أن أبا إسحاق، إذا كان يرجح في الترسل- والترسل ضرب من ضروب النثر- الألفاظ الفخمة على قدر تناسبها مع المعاني الجليلة السلسة، فإن ذلك كله لن تتأذى مقصديته لدى المتلقي، إلا عبر تلقي شمولي يستطيع أن ينجح في إدراك المجموع الممكن لشكل النص الترسلي ومحتواه العام. ولا شك أن هذا إجراء يجعل الفهم التأويلي، قادرًا على أن يؤسس بنية دلالية متلاحمة الأجزاء، ومسترسلة الأعطاف، ولينة الأطراف، تتطابق مع مقاصد المترسل وما يتطلع إليه من غايات. (الصابي، 2017، 112- 113).

إن الترسل ليس مجزأ إلى فصول قصيرة، وإنما ينقسم إلى فصول طوال. وكلما كانت الفصول مترابطًا بعضها ببعض، وثيقة الصلة فيما بينها كان ذلك أحكم لبنيانها. إنه " متى خرج الترسل عن أن يكون جليًا سلسًا، تعثرت الأسماع في حزونته، وتحيرت الأفهام في مسالكه.. وتكدر رونقه، وكان صاحبه مستكره الطريقة، مستهجن الصناعة" (الصابي، 2017، ص 113).

هذا، وأيًا كان الموضع الذي يتخذه القارئ في تفاعله مع نص الترسل، فإن عليه أن يعي بأن مسائل الخلاف، بين الذات المترسلة والذات الشاعرة، مؤسسة على" المخالفة" أو " المعاكسة" المركوزة في جوهر الصناعتين، من حيث البناء والموضوع. (الهدلق، 1990، (2)، ص587) إن جميع ما يستحب في المترسل- يقول الصابي- يستكره وجوده في الشاعر، وجميع ما يستحب في الشاعر يستكره وجوده في المترسل (2017، ص 113).

المبحث الثاني: المجال التصوري للذات المنتجة للنص الشعري وسمة الغموض

يقول أبو إسحاق الصابي:" إن طريق الإحسان في منثور الكلام، يخالف طريق الإحسان في منظومه.. وأفخر الشعر ما غمض، فلم يعطيك غرضه إلا بعد مماطلة منك منه. وعرض منك عليه.. إن الشعر بني على حدود مقررة، وأوزان مقدرة، وفصّل أبياتا؛ كل واحد منها قائم بذاته، وغير محتاج إلى غيره إلا ما يتفق أن يكون مضمنًا بأخيه، وهو عيب فيه.

فلما كان النفَس لا يمكنه أن يمتد في البيت الواحد بأكثر من مقدار عروضه وضربه، وكلاهما قليل، احتيج أن يكون الفضل في المعنى، فاعتمد أن يلطف ويدق ليصير المفضي والمطل عليه بمنزلة الفائز بذخيرة خافية استثارها، والظافر بخبيئة دفينة استخرجها واستنبطها. ثم إن للمتأمل وقفات على أعجاز الأبيات، وقد وضعت لإدراك المعنى والفطنة والمغزى. وفي مثل ذلك يحسن خفاء الأثر، وبعد المرمى.. فمتى خرج الشعر عن سنن الإبداع والاختراع، فكان ساذجًا مغسولًا، فقائله معيب غير مصيب، والترك له أدل على العقل، وأولى بذوي الفضل. (الصابي، 2017، 112- 113).

وهو نص من الممكن تعيين ومناقشة أهم مكوناته النقدية- الخلافية، في النقط الآتية:

1. **أوجه الإجادة والإحسان في الترسل مخالفة لأوجه الإجادة والإحسان في الشعر.**

مبنى الشعر مؤسس على نظام وزني محدد في مستوى الزمن؛ أي أنه متحرك وساكن، وسبب ووتد وفاصلة وتفعيلة، ثم هو شطر يتبعه توقف ناتئ أو بارز، إذا أردنا المقابلة بين متحرك وساكن ،و بين ناتئ بارز وخفي ضامر ، لا بد من أن يعد عنصرًا أساسيًا من عناصر التركيب. نقصد: سلسلة من المتتاليات التامة التي لا بد أن تقف عند حد زمني معين (بلمليح، 1995، ص 60).

2. **إن الشعر- يلحظ الصابي- بني على حدود مقررة وأوزان مقدرة".** (2017، ص. 112) كل بيت مستقل بمعناه عما قبله، وعما بعده. أي إن الوحدة في الشعر، وإن كانت قائمة في نظم الأبيات نظمًا تراكميًا و تجاوريًا، عبر وحدة الوزن والقافية؛ هاته التي لا بد أن تتوج البناء الصوتي، وأن تعلن عن اكتمال الفكرة، لضمان توازن قار، بين ما هو صوتي وما هو دلالي؛ (ابن الشيخ، 1996، 189-191) فهي- أي الوحدة الدلالية في الشعر- تحصل من جهة الوحدة التركيبية للبيت. " إلا ما يكون مضمنا بأخيه"؛ إذ التضمين" متعلق" ببنية النصين: الشعري والنثري. فهو يعد عيبًا إذا حصل في صياغة الشعر، ذلك أن الشاعر مطالب باستيفاء معنى البيت من خلال تضافر مستوياته اللغوية والتركيبية والدلالية. بينما يستحسن في الثاني، ويعتبر بمثابة علامة أساسية على

اتصال أجزاء الرسالة الديوانية؛ (الزعبي، 2017، ص 95) وبالتالي، فهو فضيلة في فصول . وغاية القول عند الصابي، ههنا، أن التركيب الشعري تركيب وزني- إيقاعي، قائم بذاته، ولا مجال فيه للتسوية، بين الوحدة التركيبية التي تحدد خطاب الترسل؛ وهي الجملة، والوحدة التركيبية التي بها يقوم الشعر؛ وهي البيت (بلمليح، 1995، ص 462).

هذا، والذي ينظر نظر تدقيق إلى ما ذهب إليه الصابي، لا يعزب عن معرفته النقدية أن الأمر لا يتعلق بتفكك بناء القصيدة العربية. فالبيت الشعري ليس مستقلا بنفسه كما يتصور، أو أنه لا يتوفر على أي رابط مع الذي يليه؛ بل انه بإمكانه أن ينسلخ عنه دون أن يصيبه بتر. إن القصيدة الشعرية سلسلة متصلة تدمج، في وشيجة منعقدة، البيت الذي يُنظر إليه مستقلًا، ضمن مجموع النظام الدلالي المتحكم في القصيدة ككل؛ خاصة" وأن الشاعر يتوفر على أدوات متنوعة لضمان هذا الإدماج، باللجوء إما لروابط لغوية خاصة، أو إلى روابط من طبيعة بلاغية، أو في النهاية إلى أساليب ذات طابع سردي" (ابن الشيخ، 1996، ص 195).

3. **مثل مفهوم" الغموض"** دلالة اصطلاحية بينة الحضور في رسالة أبي إسحاق الصابي. ذلك أن ما يقوم عليه، هو بناء لوضعيات فارغة، وملء لبياضات دلالية في النص الشعري المقروء. (Iser,1985,p.110) وعليه، فإنه ينبغي للذات المنشئة للخطاب الشعري أن تأخذ بعين الاعتبار، في فعلها الإنجازي، أن نتائج القراءات المتفاعلة، آنيًا وتعاقبيًا مع ذلك الخطاب، هي التي تبني احتمالاته الممكنة، مما يلطف ويدق من المعاني الشعرية الغامضة. (الصابي، 2017، ص 113) إنه الغموض الباني والمؤسس لفعل تواصلي منتج، بين معاني شعرية هي في أنفسها" دقيقة" و" غائرة بعيدة" (القرطاجني، 1981، ص 172)، وبين فعل تأويلي مدرك، بتجربة مسبقة يتوفر عليها المتلقي في مجال الصناعة الشعرية، للإختلاف الناشئ بين الوظيفة الشعرية، والوظيفة الإبلاغية اللغة (Jauss,1978, 41-63). وأيًا كان إدراكنا لمضمون المنظور النقدي عند الصابي، فالذي لا مراء فيه أنه حمل القريض وتلقيه على:

- " خفاء الأثر وبعد المرمى" (الصابي، ص113) من خلال تمسك الذات المنتجة بسننية "الإبداع" و" الاختراع؛ وإن شئت فقل: " الابتكار" و" التوليد" (الصابي، ص 113).
- تجاوز الفهم البسيط والتأويل السطحي لمنظوم الكلام، إلى فك المنغلق من رموزه ودلالاته الشعرية؛ وذلك بوصفها دلالة تصورية غامضة، تدفع بالمتلقي نحو التفاعل مع سياق شعري غائب عنه. وأكيد أن من شأن هذا الفعل، أن يستلزم من القارئ توفره على استعداد نفسي، وأن يمتلك بحسه الغريزي، ذوقا نقديا يؤهلانه لإدراك أن لغة المنظوم من الكلام، تصر على ألا تقول كل شيء، فتتسع من كونها شيئًا مقررًا وثابتًا، إلى كونها طاقة إيحائية من المعاني المتدفقة التي لا يمكن أن تستنفد كل إمكاناتها الجمالية. والذي نعتقد به، أن في ذاك التجاوز كبير تحقيق للأثر الجمالي الجليل، (طايعي، 2022، ص77) الذي لا بد أن يترك لدى الذات المتلقية الاعتقاد أنه منبع للذة الجمالية. فالمفضي "إلى المعنى الغامض، فهو بمنزلة الفائز بذخيرة خافية استثارها، والظافر بخبيئة دفينة استخرجها واستنبطها" (الصابي، 113).

ونحن نتبنى وجهة نظر الناقد أبي إسحاق، الرامية إلى جعل الذات المنتجة للخطاب الشعري- شاعرة ومتلقية- ندرك أن البحث عن المعنى ممكن حيث كان غامضًا. وأن الاحتمالية واردة في الألفاظ. وأن الاتساع قائم في المعاني. فإن كل هذا لم يسعفنا في تبين مسألة التفاوت في غموض المعاني الشعرية والدلالة عليها. فحديث أبي إسحاق كان مطبوعًا بطابع التنظير، الذي يحدد أوجه الخلاف بين صناعة الترسل وصناعة الشعر. صحيح أن الفضل في الكتابة الشعرية للمعنى الذي يؤْثَرُ غموضه، وأن من أبرز خصوصياته الإبداع والاختراع. كما أن الفضل في الكتابة النثرية للأسلوب، وأهم ضوابطه الألفاظ الفخمة. وأنه بسبب اختلاف المبنيين، تفاوت حال الكاتب والشاعر؛ فاختلفت الإصابة فيهما(عباس، 1983، ص 398).

لكن مع كل هذا، لم يتم الانصراف إلى بيان طبيعة الدلالة على المعاني، مع تعيين مجمل العوامل التي تؤدي إلى غموضها. فهل هي دلالة إبهام وإغماض وتعمية؟ وهل يعود الغموض إلى المعنى في ذاته؟ أم إلى الغموض من جهة العبارة المتقعرة؛ التي تدل على المعنى؟ أم إلى جهتي المعنى والعبارة؟ بمعنى آخر: ما السبيل إلى مطاردة المعاني وتصنيفها وحصر أنواعها، وضوحًا وغموضًا؟ (أديوان، 2004، 117-119)

المبحث الثالث: مو افقة الطبع سمة للخلاف بين المترسل والشاعر

بعد هذا الذي أوضحناه، بخصوص مسائل الخلاف التي حددها أبو إسحاق الصابي، بين وضوح النثر و غموض الشعر، مع ما يلابس هاتين السمتين، سيكون من المفيد من الناحية النقدية التحليلية، أن نعرج صوب الحديث عن" الطبع" بوصفه سمة جوهرية في التفرقة بين المبنى الشعري والمبنى النثري؛ وبالنتيجة ببيان اختلاف الإصابة في كل منهما.

يقول أبو إسحاق الصابي:" كنتَ سألتني- أدام الله عزك- عن السبب في أن أكثر المترسلين البلغاء لا يفلقون في الشعر، وأن أكثر الشعراء الفحول لا يجيدون في الترسل. فأجبتك بقول مجمل..، فأقول: إن طريق الإحسان من منثور الكلام يخالف طريق الإحسان في منظومه..، فلما صارت الإصابتان في الأمرين مترامِيتين على طرفين متباينين، بَعُد على القرائح أن تجمعهما، فشرقت إلى هذا فرقة،

وغربت إلى ذاك أخرى، مال كل من الجميع إلى الجانب الموافق لطبعه، ثم ترتبوا في المسافة بينهما، فكان الأفضل من أهل كل مذهب مَن وقع في الغاية أو قريبًا منها، وجعل الوسط خاليًا، أو كالخالي، لقلة عدد الواقعين فيه. فليس يكاد يوجد الجامع بين الإحسانين، إلا على شرط يزيد به الأمر تعذرا، والعدد تنزرا؛ وهو أن يكون طبعه طائعا له، فإذا دعاه إلى التطرف معه إلى أحد الجانبين، أجابه وانقاد إليه" (الصابي، 2017، ص 112).

فأبو إسحاق يصوغ تصورًا نظريًا يقر الآتي:

1. الطبع سمة أساس في الربط بين الشعر وطبيعة الذات المنتجة له؛ أي أنه لا يتم الحديث عن الباعث على القول، إلا إذا تم النظر في تلك القوة الفطرية التي يتمتع بها الشاعر.
2. الطبع سمة أساس في الربط بين الكتابة النثرية (الرسائل الديوانية)، وبين طبيعة الذات المنتجة لها؛ حيث القول النثري وليد جيشان في النفس وحركة في القريحة (الصابي، 2017، ص 112).
3. من المعتاص اجتماع الموهبتين: الشعرية والترسلية في مبدع واحد؛ أي من البعيد أن يكون المبدع شاعرًا كاتبًا؛ وذلك لاختلاف ما هو مركوز في الغرائز المهيأة- هي بطبعها- إما لبناء كلام شعري مؤسس على التخييل والتأويل المختلف، وإما لبناء كلام نثري مؤسس على الإبلاغ والإقناع والتصديق.

فليس ثمة أوضح منه في الدلالة، على جواز أن تكون الذات الشاعرة- هاته التي تتوفر على ذخيرة معرفية راسخة في مجال الكتابة الشعرية العربية. وتمتلك قدرة كبيرة على حصر أوجه التناص وممكناته الدلالية بين النصوص الشعرية. وتستطيع أن تستكشف، سليقة، عن التعارض القائم بين الوظيفة التضمينية والوظيفة التقريرية للغة (Jauss, 1978, p .50)- مالكة لمعرفة دقيقة بالضوابط الفنية والجمالية التي تتحكم في بناء القول النثري بعامة؛ لكنها، بالرغم من ذلك كله، لا تقتدر القول فيه بل هي قادرة على الممكن، ومقتدرة عليه؛ تلفيه وهي تحكّم ذخيرتها المعرفية، أنه متعسر وحرون، ولا يستطيعه غيرها.

ولعل ذلك مرده- وإن كان في آحايين نادرة ما يحصل فيه للطباع " تطويع وانقياد " (عباس،1983، ص 410)- إلى أن طبع الذات المنتجة يميل بها إلى أحد هذين المتنافرين المتباينين: الشعر والترسل. لأجل ذلك قرّ عند الصابي أن لكل من الشاعر والكاتب وجهة هو موليها. فكلاهما غير "مفلق"، وغير محقق لمقصديته من بناء عمله الفني، إن رام الصدور عن طبع لا يوافق قريحته، ولا يتساهم مع ملكته المتحكمة فيه. (عباس، 1983، ص 615) وتبعًا لهذا كان طبيعيًا أن الذي "يجعل الوسط خاليًا، أو كالخالي"، بين منظوم الكلام و منثوره، هو عينه الذي يستدعي، من منظور أبي إسحاق الصابي" ترتيب المسافة". (الصابي، 2017، ص 112) بين ذاتين إبداعيتين كل واحدة منهما تمتلك صناعة تباين الأخرى، من حيث القواعد والأصول (الزباخ، د.ت، ص 158).

وأيًا كان الوضع التكويني الذي اتخذه الطبع في الشعرية العربية القديمة، تبعًا للدائرة المعرفية التي وظف فيها، فإنه يظل عند أبي إسحاق محور" مقايسة "الشعر بالترسل، من جهة علاقة المخالفة والصفات المفرِّقة. وإذا تراضينا عن هذا، فإنه يتم تقدير الاقتدار على الكتابة الشعرية، بكل مستوياتها اللغوية والتركيبية والتغريضية؛ من"وصف الديار والآثار، والحنين إلى الأهواء والأوطار، والتشبيب بالنساء، والطلب والاجتداء، والمديح والهجاء" (الصابي، 2017، ص 114)، بحكم معيار (الطبع الشعري)؛ الذي يدفع ما دونه فتحمل عليه الكتابة الشعرية موافَقَة وطوعًا ملكة متفردة وسالمة من التنازع"؛ (عباس، 1983، ص621) وهو الشيء الذي يؤهلها لتكون تجربة وجدانية شعورية خاصة، تحقق خلالها الذات بلوغها الشأو في التجويد الفني.

في حين يتم تقدير الاقتدار على الكتابة النثرية، من حيث أساليبها وطرائقها وموضوعاتها، وكذا القضايا التي تطرُقُها،" كأحوال الزمان، وأحوال الشريعة، والعهود، والتحريض على الجهاد، والاحتجاج والمجادلة، والنهي عن الفرقة، والتهنئة، والتعزية (الصابي، 2017، 114)، بحكم معيار(الطبع النثري) وحملها عليه؛ من حيث إن بناء حكم نقدي إزاء تلك الكتابة مردود إلى ذلك المعيار. بعبارة آخر، نحن بهذا الاعتبار نرى في الضوابط التي تحكم بناء الرسائل (الديوانية، والإخوانية، والأدبية) والحكم عليها بالجودة أو بالرداءة، لا يتحقق إلا عندما تنقاس ردًا على طبع أصحابها. (الأنباري، 1971، ص 93).

الخاتمة:

ثمة نتائج تحققت لهذه الدراسة، يمكن حصر مؤدياتها في النقط الآتية:

- خلصت الدراسة إلى أنه لا يتحقق القول بتجنيس الترسل عند الصابي إلا من خلال، أولا، ذات باثة لنص مؤسس على دلالات إبلاغية وإقناعية و تصديقية. وثانيا، ذوات متلقية لذلك النص، احتكامها إلى قاعدة" الاستدلال بالملفوظ على المقصود"، لا يلغي معطى تفاضل آفاق استعداداتها النفسية، وتباين قدراتها وكفاءتها في استحضار وتمثل وحدات النص، اللغوية والتركيبية والدلالية والتداولية، على أساس أنها وحدات لا يمكن تأويل مقصديتها إلا عندما تنقاس، ردا على تفاعلاتها الاجتماعية والثقافية.

- وخلصت الدراسة إلى أن الوضوح، سواء عن طريق المعاني الحقيقية أو المعاني المجازية المصاحبة- وإن كان حظها من الحضور قليل. واستيفاء ضوابط الوحدة الموضوعية والعضوية. معياران نقديان أساسيان، ينماز بهما مبنى الترسل، تنظيرًا وممارسة.
- كما وقفت الدراسة عند توصيف وتحليل السمات التي يختص بها جنس الشعر، فخلصت، أولًا، إلى أن التركيب الشعري تركيب وزني- إيقاعي قائم بذاته، ولا مجال فيه للتساهم أو التسوية، بين الوحدة التركيبية التي تحدد خطاب الترسل؛ وهي الجملة. والوحدة التركيبية التي بها يقوم الشعر؛ وهي البيت. وتوصلت، ثانيًا، إلى أن أي قراءة إنتاجية للنص الشعري، لا بد أن تستلزم معرفة مسبقة بالمعايير الفنية والجمالية التي تحكم مجال الكتابة الشعرية وتلقيها على حد سواء. على أنه إذا كان البحث عن المعنى الشعري لا يتأتى، إلا من جهة غموضه وتمنعه على الذات المتلقية، فإن أبا إسحاق لم يكلف ذاته الناقدة عناء تحديد أنواع جهاته، ولا أوجه التفاوت في غموض المعاني الشعرية والدلالة عليها.
- وقد خلصت الدراسة كذلك، إلى أن فرضية " **طبع شعري**" و " **طبع ترسلي**"، يمكن أن تفيدنا كثيرا في تفسير المتخالفات القائمة، بين الذوات المنتجة للنصوص الأدبية بعامة، والذوات المنتجة للنصوص الشعرية والترسلية بخاصة. أي إنه ضمن هذا التصور افترضنا جواز قراءة الذات الشاعرة قراءة تخيل. وقراءة الذات الناثرة قراءة إبلاغ وإقناع وتصديق؛ وذلك لاختلاف ما هو مركوز في الغرائز المهيأة- هي بطبعها- لبناء كلامين، لا يمكنهما أن يكونا على صورة متمايزة، بمعزل عن طبع صادر عن كل واحد منهما، على جهة الاستعدادات الفطرية.
- إن الفضاء الواسع الذي يشغله حديث أبي إسحاق الصابي عن أوجه الخلاف، بين القول الترسلي والقول الشعري، يجعل منه ذاتا متلقية مبَنْيَنَة، بصورة ضمنية أو صريحة، في مجموع التصورات التنظيرية النقدية العربية؛ التي انتدبت نفسها لمعالجة قضية الشرائط والمنطلقات التأسيسية المتحكمة، اتفاقًا واختلافًا، في ذينك القولين. ندعي هذا، ونحن لا نمتلك تصورًا نظريًا تقليديًا لمفهومي الشعر والترسل، خارج ما تم ترسيخه من تصورات نقدية، اختصت بها اجتهادات عبد الحميد الكاتب، والجاحظ، وابن قتيبة، والصولي، وأبي علي الحاتمي، وأبي هلال العسكري، والآمدي، والمرزباني، والمرزوقي، وابن رشيق، وابن سنان الخفاجي،.. وغير هؤلاء كثير.
- إن الكتابة الشعرية التي تؤثر الغموض، تقابل عند الصابي، الكتابة النثرية التي تؤثر الوضوح، مقابلة تضاد لا تناقض، لأن كل الضدين مختلفان ؛ فلك من الكتابتين صفاتها وصياغتها الفنية والموضوعية الخاصة بها.

التوصيات:

من خلال ما سبق، تتبين ضرورة تفسيح النظر النقدي، عبر دراسات أخر، في مسألة قراءة رسالة أبي إسحاق الصابي قراءة سوسيولوجية؛ وهذا مما استنكفت عن مجاراته الدراسة لأنه ليس بمجال تخصصها. تنطلق من البحث في مرتكزات إنتاج النصوص النثرية، مرورًا بتوزيعها، وصولًا إلى استهلاكها. وهو ما يمكن من بناء ضوابط للمفاضلة بين الشعراء والكتاب. وثانيًا، بضرورة جعل القراءة النقدية للنصوص التنظيرية في النقد العربي القديم، مجالًا للتأمل والمساءلة والمغايرة؛ وذلك بآليات نقدية معاصرة وميكانيزمات حديثة نستنطق بها الخبيء، ونستحضر بها الغائب، مع ضرورة اختبار مرجعيات نظرية ومنهجية، من خلال الانفتاح على مفاهيم نظرية ومصطلحات تصورية في الفكر النقدي الأدبي المعاصر. إنه لا قيمة لتصورات نقدية تستجلب من الآخر، إلا بمقدار ما تنير طريق الباحثين نحو بناء قراءات للتراث النقدي العربي، أكثر فاعلية.

المراجع:

ابن منظور، م . (1988). *لسان العرب*. دار الجيل.

أديوان، م. (2004). *قضايا النقد الأدبي عند حازم القرطاجني*. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

الأصفهاني، ر. (2009). *مفردات ألفاظ القرآن*.(صفوان عدنان داوودي، محقق). دار القلم.

الأنباري، أ. (1971). *لمع الأدلة في أصول النحو*.(سعيد الأفغان، محقق). دار الفكر.

بلمليح، إ. (1995). *المختارات الشعرية وأجهزة تلقيها عند العرب من خلال المفضليات وحماسة أبي تمام*. منشورات كلية الآداب.

بن الشيخ، ج. د.(1996). *الشعرية العربية تتقدمه مقالة حول خطاب نقدي*. جمال الدين بن الشيخ. (محمد الولي محمد، حنون مبارك، أوراغ محمد ، مترجمين). دار توبقال.(العمل الأصلي نشر في 1989).

التهناوي، ع .(1998). *كشاف اصطلاحات الفنون*.(بسج أحمد حسن، محقق). دار الكتب العلمية.

حسان، ت. (1990). *موقف النقد العربي التراثي من دلالات ما وراء الصياغة اللغوية*. منشورات النادي الأدبي الثقافي، (2).

الزباخ، م.(د. ت). *فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين*. الدار العلمية للطباعة والنشر.

الصابي، إ. (1990). *رسالة في الفرق بين الشاعر والمترسل*. جدة: منشورات النادي الثقافي. (الهدلق، محمد بن عبد الرحمن ، محقق)، (2)، 587.

الصابي، إ. (2017). *رسالة في الفرق بين المترسل والشاعر*.(ضمن: رسالتان من التراث النقدي عند العرب). الآن ناشرون وموزعون (ضمن: رسالتان من التراث النقدي عند العرب). (الزعبي زياد ، محقق).

طايعي، أ. (2007). *القراءة بالمماثلة في الشعرية العربية القديمة*. منشورات زاوية.

طايعي، أ. (2022). *الشعر العربي مجاري التلقي ومستقرات التأويل*. دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.

عباس، إ. (1983). *تاريخ النقد الأدبي عند العرب نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري*. دار الثقافة.

عبد الرحمن، ط. (2000). *في أصول الحوار و تجديد علم الكلام*. المركز الثقافي العربي.

القرطاجني، ح. (1981). *منهاج البلغاء وسراج الأدباء*. دار الغرب الإسلامي. (بلخوجة محمد الحبيب، محقق).

Iser, W.G. (1985). *L'acte de lecture. Théorie de l'effet esthétique*. Bruxelles: Margada.

Jauss, H.R. (1978). *Pour une esthétique de la reception*. Paris: Gallimard.

Jauss, H. R .(1988). *Pour une herméneutique littéraire* .Paris: Gallimard.